المزارات في شرقي الاردن

بقلم حضرة الخوري بولس سلمان

توطئة

قد وفرت المزارات الدينية في شرقيّ الاردن وغدت عند اهل البادية اشهر من نار على علَم . فلا يخطو المسافر بعض خطوات في القرى العامرة او في الربوع الخالية حتى يتعهَّد مقاماً يتوارد اليه الزوّار ويقيمون له اكراماً ويقدّمون له القرابين والضحايا

فهذه المباني المتعدّدة تختلف باختلاف اصحابها المدعوّين بالاولياء. ولذلك قسموا المزارعات الى كبرى وصغرى . فالكبرى هي التي يشيدون اسّها ويرفعون جدرانها بالحجارة الكبيرة القديمة . فاذا دخل المرء الى داخلها الفى بنـاء مستطيلاً على هيئة القبور الاسلامية المشهورة مزيّناً بانواع الزين من نسيج حريري اخضر وشموع ومصابيح خزفية مُضيئة . وربما يبلغ طول اللحد عدّة امتار كقبر النبي هوشع في شمالي السلط . وكلّما فخم البناء واتّسع زاد اعتباره وكثر زائروه . واما المقامـات الصغرى فهي دائرة من الحجارة يسكن في وسطها الوليّ الاسلامي . فلا شيء يميّزها عن غيرها سوى الذكر والشهرة . والاعراب يدعون المقام باسم صاحبه . فيقولون زرنا هوشع اي مقام النبي هوشع واتينا الهلاهلة والولي جعفر اي مزار الهلاهلة والوليّ جعفر (١ وربما ذكروا الجبال او الاودية المحيطة بالمزارات او عيون الماء القريبة منها فمن ذلك وليّ وادي شعيب او ولي شجرة الخنيطي او عيون الماء

---

١) قال الشيخ محيي الدين العربي في الفتوحات المكية : «اعلم ان النبي هو الذي يأتيه الملاك بالوحي من عند الله يتضمّن ذلك الوحي شريعةً يتعبّده بها في نفسه فان بعث بها الى غيره كان رسولاً . وفي الكتب الكلامية ان الولي هو العـارف بالله تعالى وصفاته حسب ما يمكن المواظب على الطاعات المتجنب عن المعاصي المُعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات . وكرامته ظهور امر خارق للعادة من قبلهِ غير مقارن لدعوى النبوّة فما لا يكون مؤذناً بالايمان والعمل الصالح يكون استدراجاً وما يكون مقروناً بدعوى النبوّة يكون معجزة »

والاعراب يسمّون المقام وليًّا لان ارواح الصالحين تقطن في ذلك البناء على زعمهم. فالولي لغةً هو المساعد والصديق والوكيل عن امرئ في امر ذي اهمية. فالله هو وليُّ الجميع وهو وليُّنا ونعم الوكيل. واما اصطلاحا فهي الارواح البارّة والنفوس المقرّبة من العلي تُناجيه مدى الادهار وهي تضرع اليه كي يصفح عن البشر ويساعدهم في جميع احتياجاتهم. فالجنّ تسعى دائما في اضرار بني الانسان. واما الاولياء فتارة يساعدون الملتجئين اليهم وطورًا يسيئون الى من يبغيهم. وربّما اقام اهل البادية مزارًا لاحد الابطال والشيوخ الذين عاشوا بالبرّ والصلاح. فمن الصفات المطلوبة ان يكونوا ارباب كرم وابطالًا في الحروب يقودون الغزوات ويجمعون الفرسان ويخوضون ميدان الوغى. فاينما وقعوا أحيوا لهم ذكرا واقاموا لهم مزارًا وغدوا مثالًا لارباب المضارب وربما كان الولي خيالًا نتج في المخيلة فجسّمته ومثّلته لعالم الوجود والحدثان

١ انواع المزارات

كانت قمم الجبال ومرتفعاتها في العصور الخالية مكرّسة مقدّسة كما ذكرناه في مقالتنا السابقة وذلك ان الاقدمين ألفوا هنالك من العظمة والارتقاء ما مثّل لهم انها تلج الى كبد السماء فتنال قوّة عجيبة ومن ثمّ اقاموا الهياكل والمقامات الدينيّة في رؤوسها. فلا ريب ان النفس في ارتفاعها الى هذه البنايات الشاهقة كانت تشعر بالعواطف الرقيقة والالهامات القلبية السامية فذلك ما حملهم على الظنّ ان الاعلام اقرب متناولًا الى عرش العليّ

بيد ان الاعراب لم يحيدوا عن افكار اجدادهم الساميّين لا بل اقتفوا اثارهم وساروا على مناهجهم. فمن ذلك نرى ان اكثر المزارات البدويّة قائمة على قلل الجبال. اذا وقف السائح على قمّة جبل هوشع يسرّح الابصار بما يكتنفه من المشاهد البديعة الرهيبة يشاهد عن بعد وادي الاردن يسيل بالتؤدة والوقار والاشجار حوله يمينًا وشمالًا ويمين سُفوح الهضاب مرتفعة شيئًا فشيئًا بعطفاتها وطيّاتها الى مقام النبي هوشع. فيؤثّر ذلك المنظر في فؤاده وتحلّ في صدره المسرّة والدهشة. ويحسّ بان يد الله العظيم قد كوّنتها باكمل نظام كدرجات طبيعيّة ترتقي الى هذا الجبل. وكثيرًا

ما اقاموا المزارات على ينابيع المياه . فبينما المتجوّل يمشي وطأة الحرّ ووقدات القفر اذ يجد مسيل ماء يترقرق على الحصباء فيرتاح لخريره وحفيف اشجاره فتحمله النفس الى الصلاة في تلك الخلوة — ومن المزارات ما هو في السهول الممتدّة الاطراف ومنها ما هو على منحدر الجبال ومنها ما هو مختصّ بالرجال ومنها ما هو نسائي . ومنها ما هو مبني على اسّ تاريخي ومنها ما هو وهمٌ من الاوهام . ومنها ما هو مذكور في الكتاب المقدس كمزار النبي موسى وهارون وجاد ومنها ما هو تقليدي نابع لتاريخ البادية

٢ مزارات السلط وضواحيها : النبي هوشع وجاد وشعيب

ان مقام «النبي هوشع (١)» قائم على قنّة جبل يبعد عن السلط شمالاً ثلاثين دقيقة فقد نال اكراماً من قديم الزمن لما وجدوا فيه من الخوارق . والاهلون على اختلاف مذاهبهم وطبقاتهم يزورونهُ في اكبر الاعياد الاسلامية وايام المصائب والنكبات

ولما كانت الطريق المؤدّية اليه خربة وعرة اهتمّ ارباب الحكم في السلط باصلاحها وترميمها . ففي جوار المزار اشجار سنديان عاديّة يرتقي عهدها الى ثلاثة اجيال واكثر وهي ذات إكرام . والمقام هو بناء مستطيل طولهُ من الشرق الى الغرب عشرة اذرع وعرضهُ من الشمال الى الجنوب خمسة . فاذا ولجتَ من الباب المتّجه نحو الشمال أخذتك الرهبة اذ تعاين قبر احد الجبابرة العظام وقد يبلغ طولهُ خمسة اذرع ونيفاً . وهو مفروش بالسجّاد مما جادت به نفوس الزائرين . وعلى قبره نسيج اخضر مطرّز بالذهب . هناك تشاهد القرآن فوق الرأس . هناك مصابيح الزيت والسمن . وهناك قطعُ خزَف مشكّلة الالوان ما بين حمراء وبيضاء وصفراء وزرقاء معلّقة على الحائط . وهو مبني بحجارة قديمة يرتأي الباحثون ان اكثرها يرتقي الى عهد الصليبيين . وفيه آبار عديدة منقورة في الصخر ينحدرون اليها بدرجات واسعة

ولهذا المزار قيّم يدعى ابا محمّد وهو من الفضلاء وقد ذكر لي عدّة آيات اجراها النبي في مقامه . قال : « اتاني شيخ من بني صخر بابنة له يابسة الفكّ فقلت لابيها : هي

١) هوشع النبي هو صاحب السفر المعروف باسمه في الكتاب المقدّس احد الاثني عشر نبيًّا كان في ايام يربعام بن يواش ملك اسرائيل

معتراة من الشيطان . فأدخلتها المزار فسقطت على الارض من شدة الالم وكانت تصيح صياحاً يشقُّ الصخور فعلمتُ ان ابليس الرجيم لا يخرج الَّا بالاهانة والمذلة . فضربتُها على فكها بحذائي ثلاث دفعات . فكانت تشعر باضمحلال الرض شيئاً فشيئاً الى ان نالت تمام البرء والشفاء . ودهنتها بزيت النبي فلم يعُد اليها الرض » . والرعيان انفسهم يطوفون بالاغنام حول المزار في ازمان الاوبئة ويختارون خير النعاج ويصعدونها الى سطح القبام ويذبحونها فيسيل دمها على عتبته . وكل من زار هذا المكان يرى اثار الدماء بادية على الحائط

لمَّا أمسكت السماء في ارض البلقاء سنة ١٩١٣ امرَ القاضي الاسلامي جميع الملل في السلط من اسلامية ونصرانية ان تصعد الى الجبل المقدس فصعد القوم كبيرهم وصغيرهم واقاموا الصلاة وذبحوا الذبائح . فكان انقيم في عيد عظيم لانه اصاب الرؤوس والجلد والامعاء . وفي تلك الليلة هطلت الامطار وسالت السيول وغرقت السهول . فزاد اكرام المقام وطارت شهرته

ويروى ان المرأة العاقر تزور النبي حافيةً خاشعة وتجثو امام الضريح وتقبله بدموع وتضرع ان لا تكون عارًا بين النساء . ومنهنَّ مَن يوقدن الليالي الطويلة بين أسواره بالصوم والصلاة ثم يغادرنه وفي نفسهنَّ الامالُ والمسرَّات

وفي جنوبي السلط أكمة تُدعى بابن جادور وهو ﴿جاد بن يعقوب﴾ الذي حلَّ في شرقي الاردن . فالتقليد الاعرابي يذكر انه دُفن في رابية من روابي السلط . وهذا المزار يشبه بئرًا ينحدر اليها المرء بدرجات قليلة . ويزوره المجاورون لما يجدون فيه من السلطة والقدرة . على ان عوامل الدهر قد هدمته واخذ اكرامه يزول شيئاً فشيئاً بما حدث من الفتور والتراخي في الدين

يسر ايها المسافر في وادي السلط الجنوبي نحو الاردن بين رياض غنَّاء واشجار ملتفَّة الافنان ومياه مترقرقة على الحصباء تجد بعد ساعات ثلاث محيطاً من الحجارة وبركة ماء . فهذا هو المزار الطائر الذكر البعيد الشهرة ألا وهو مقام البلقاء كما المدعو ﴿النبي شعيب﴾ . وهو ولي مرهوب مختصّ بالاقسام الكبرى اذا اشكلت الدعاوي واستعجمت مذاهبها وأدْجنت سماؤها بطلب القاضي البدوي القسم الرهيب في بركة شعيب كما ابناه في باب القاضي البدوي . فينزل المجرم في المياه المكرَّسة ويقول : بحياة

شعيب ورب شعيب اني بريء مما اسند اليَّ من الجرم . وكثيرًا ما تأخذهُ الاوهام ويشعر بذنبهِ الخفي فترتجف اعضاؤه وتصطكّ ارجله ويُعقد لسانهُ فيقرّ بما جنت يده من الاثم

واذا قُتِلَ انسان ولم يُعرف له قاتل يأمر الحاكم الاعرابي المتَّهمَ ان يمضي بمئة شهود ثلاثة الى محيط النبي شعيب ويقسم انه بريء مما عُزي اليه . ويقال له في تاريخ الاسلام خطيب الانبياء. لحسن مراجعة قومه بعثهُ الله الى اهل مدين واصحاب الايكة(١ . ومما يروونهُ عنهُ انه كان في اراضي مدين رملٌ عظيم يقاسون منه عناء شديدًا . فدعا الله تعالى فاجابهُ وامرهُ ان يشير الى الرمل فاشار اليه فانتقل الى مكان آخر وانقلبت الارض بدعائهِ نُحاساً فغدا اصحابه اغنياء. وقال شعيب لقومه: « يا قوم اعبدوا الله ما لكم إله غيره . ولا تنقصوا المكيال والميزان » لانهم كانوا يجلسون على الطريق ويبيعون بالكيل والميزان الناقص . وكانوا يقطعون الطرق فلما طال تماديهم في الغي والكفر وينس من صلاحهم دعا عليهم فاهلكهم الله بالرجفة وهي الزلزلة . ويزعمون ان شعيباً كان اذا اراد ان يصعد الجبل انخفض حتى يعلو عليه ثم ينهض الجبل به الى حيث اراد

ودونكم الحادثة الآتية قد تعهَّدتُها بعيني . سرق اعرابي من عشيرة الزايدة بقرة الاب سلامة الحدادين خوري طائفة الروم الاورثوذكس في ماعين . فداخله منه ريب وخالجه فيه ظنّ فرماه بالسرقة . فانكر الأمر ونحّى عنه الجرم بالاقسام المغلظة . فلمَّا عجز الاب سلامة عن ايضاح الحق ارسلهُ الى وادي شعيب كي يبين براءته في البركة المعهودة . فلم يُبالِ السارق بالامر وانتصب امام الجميع على رجل واحدة واخذ يقفز بهزء ويقول: «وحياة شعيب وحياة شعيب اني ما سرقتُ البقرة» على انه لمَّا انتهى الى محيط النبي وقف وقفةَ المرتاع واخذتهُ رهبة المكان فاشار الى الحاضرين انه هو السارق . فقد رايتهُ قبل سفره وهو الذي روى لي هذه الحادثة بعد عودته . ومن هذه الروايات عددٌ لا يحصى يُستدلُّ منها ان الولي شعيب هو وليٌّ مرهوب من الزرقاء. لدى الزرقاء. كما يقول الاعراب اي من نهر الزرقاء الشمالي المدعو

(١ شُعيب على زعم العرب هو موسى المدعو في التوراة يثرو ورد ذكرهُ في القرآن في سورة الاعراف

بزرقاء شبيب الى الزرقاء الجنوبي المدعو بزرقاء ماعين . فقد يقسم الاعرابي بالله دفعات متوالية على انه يخشى ان يذكر اسم شعيب بالكذب مرّة واحدة لانه «مُظهر الاسرار وموضح الخفيّات »

ومن اولياء السلط المدودين ﴿مزار ابي عبيدة﴾ . وهو من الابطال المجاهدين في صدر الاسلام وهو مكرّم في بقعة المدوان في غور المشاخة شرقي الاردن وهو بناء قديم وعليه قبّة مرتفعة حديثة يقدم اليه الاعراب صاغرين متذللين ويقربون له القرابين بعد رجوعهم من غزواتهم كاسبين . غير ان اكرامه لا يمتدّ الى ارض البلقاء بل ينحصر في سهل الاردن الشرقي

٣ المزارات الموابية : جعفر الطيار . النبي هارون الخ

فبعد ان ذكرنا مزارات البلقاء علينا ان نميط اللثام عن المزارات الموابية . بالقرب من الكرك نجد مزارًا جليلًا طار ذكره في تلك البقعة ونال شأنًا رفيعًا فهو ﴿ جعفر الطيّار ﴾ ولي تأريخي يورده الحديث الاسلامي . ذكر المؤرخون انه في السنة الثامنة للهجرة خرج المجاهدون من البادية لمحاربة الروم وافتتاح ملكهم فالتحم الجمعان في بقعة تدعى مُؤتة فسقط من الجانبين عدد وافر واسفرت المعركة عن كسر المجاهدين ونصرة الروم عليهم . وكان في مَنْ سقط قائد مشهود له في المعارك يدعى جعفرًا . زعموا ان الامام عليًا لمّا تقدّم اليه ليحمل جثّتهُ لم يستطع اليه سبيلًا بل كان كالطود في ثقله . فقال له بصوت عظيم : « خفّف دمك يا ابن عمي » فطار نحو ميل وسقط في مقامه الحالي حيث دعوهُ جعفرًا الطيار . ورفعوا له مزارًا حبسوا عليه اوقافًا واسعة . ومما يدلّ على عظمته ما بقي فيه من آثار المجد الغابر والحجارة الضخمة والأنقاض المتبعثرة . ومما ورد في الحديث قول محمد نبي الاسلام : «خُلق الناس من اشجار شتّى وخُلقتُ انا وجعفر بن ابي طالب من شجرة واحدة» قالوا وكان جعفر مزيّنًا بالجناحين يطير بهما في الجنة حيثما شاء . ورووا عنه انه لقي العدو فاصابه ثلاث وسبعون ما بين ضربة وطعنة والواء بيمينه قال : . فقُطعَتْ يميني ثم اخذت الواء بيساري فقُطعت يساري فعوّضني الله تعالى جناحين اطير بهما في الجنة مع جبرائيل وميكائيل حيث شئت ولهذا اسمي الطيّار في الجنة » انتهى

ففي ايام الربيع يفد اليه الزائرون من عرب المجالي والحجايا والسلابطة والحباشنة والمعايطة وغيرهم فترى الفتيات يرقصن حول المزار باغاني مُطربة ونغمات رقيقة بينما الشبان يجولون في ميدان متسع على متون الجياد الاصيلة . يخوضون غبار السباق لينالوا الذكر وحسن الاحدوثة . وبعد الافراح ينحرون الذبائح ويقدمونها للفقراء اكراما لجعفر الطيّار

واذا سار السائح نحو الجنوب الى معان يرى هناك مزار النبي هرون فافادني رجل تياهي من وادي موسى فقال : لا اعرف مقاماً اشدّ اكراماً ولا اوفر آيات من النبي هرون في عهدنا الحاضر . فهو مظهر الغيوب وكاشف ما في الصدور والقلوب يهجع الزائر المؤمن تحت ظلّه فيشعر بما لا يوصف من المسرّة والحبور فيعاين شيخاً جليلاً ابيض الناصية طويل الشعر عليه مُطرَف اختمر يُعلمه بما يجب ان يعمل . روى لي الشيخ عليان من عرب التياهة قال : « ان اصل هذا المقام عجيب وذلك ان موسى وهرون سارا يوماً في وادي معان واذا بكهف يسطع فيه النور فبادرا اليه فدخلاه وعاينا سريراً من ذهب عليه من انواع الزين ما يذهل له العقل وقرأ على جانبه هذه العبارة : هذا السرير لمن كان طولَه . فامتدّ موسى عليه فزاد من طوله . فصعد هرون فكان كقالب له فلما همّ بالنزول منه مسكه ملاك الرب وتوفاه عليه . فرجع موسى حزيناً نادباً واخبر بني اسرائيل بامر السرير »

روى لي ثلجة بن عبّاس من معان قال : عزمنا على الغزو في يوم راق هواؤه ورقّ نسيمه وأديمُه . فلم أُقدم حتى استشرتُ النبي هرون فجلست تحت ظله فظهر لي شيخ رفيع القامة ساطع الطلعة وقال : اياك والغزو فهو يوم بؤس . فاخبرتُ رفاقي فلم يُذعنوا للنصيحة وابوا الّا الغنيمة . ولمّا مضوا في طريقهم التقى بهم جيش من الاعداء فمزّقهم وشتّتهم

سألت احد الاعراب اين مقرُّ النبي هرون ؟ قال انه يرقد في قمّة الجبل بين الصخور الناشزة . فيرهبه الزائرون ويضجعون تحت ظلاله المتعكسة . وكان اكرامهُ قد فتر على تراخي الاجيال الى ان مرّ به درويش مصري يقصد الحجّ فنام بالقرب من هذا المقام فظهر له الشيخ الابيض الناصية وقال له : انا هرون النبي قُمْ وانظر فوق رأسك بناء صخرياً منقوراً من عهود قديمة هذا مزاري وهنا ضريحي . فلمّا استفاق

من رقاده اعلم الاعراب بما رأى وسمع وغدا قيماً الى ايامنا الحاضرة . وفي معان مزار نسائي مشهور يُعرف ﴿ببنات العين﴾ هو لم يكن معروفاً من ذي قبل حتى وردت اليه بدويات يستقين ماء فشاهدن ربات المياه مرتديات ثياباً خضراء فقلن لهن : هذا مقامنا به نقطن لشفاء البشر . فانتشر ذكره بين العواقر يقدمن اليه بالقرابين والمصابيح لنيل البرء والشفاء . وهو مختص بالنساء فقط ويدعونه المستشفى النسائي كما شرحه لي بعض الاذكياء الفكهاء .

ومما يجب التنبيه اليه ان اهل البادية قد رفعوا مزارات لاصحابهم واحبابهم طبقاً لسُنّة الحب المعهودة . فان اناساً عديدين تقوى فيهم ذكرى من يعز عليهم بعد موتهم فيرفعون لهم ضريحاً ليبقى اثراً مشهوداً . وقد يخيّل اليهم ان ارواح اصدقائهم تعود اليهم بعد وفاتهم وترفرف بلطف فوق رؤوسهم . ففي الليالي المظلمة يشتدّ بهم الحب والتأثير فينتقلون الى قبر عزيزهم ويشعرون براحة بالقرب منه وكثيراً ما يسمعون اصواتاً يخالونها مناجاةَ احبابهم لهم ويصبح قبر الحبيب حيناً بعد حين مزاراً مكرساً

نشبت حرب طاحنة من زمن مديد بين اهل الكرك واهل جبال فتصادم الجمعان في وادي موسى في سهل البقيعة . فانكسر الكركيون شرّ كسرة . وسقط بين القتلى فارس يدعى مصلحاً فحُمل الى الشوبك ودُفن هناك وذبحوا على قبره ذبيحة الاموات واصبح على تمادي الزمان ولياً ومزاراً

وربّما رووا الآيات الغريبة عن اولئك المكرّمين في المزارات . ففي الدخل مزار كريم يدعى ﴿مزار الحُجّاج﴾ . والحُجّاج على زعم اهل البادية هم من عرب الحياة تمردوا على الحكومة المصرية فانزلت بهم من النكال الواناً ثم رمت جثثهم للكلاب فابت هذه الحيوانات ان تفترسهم . وبينما الجموع تنظر الى هذه الامور وقد نالتهم عواطف الدهشة اذ نُشروا من الاموات وطردوا عنهم الكلاب وماتوا فايقن الحاضرون انهم قُتلوا ظلماً وعدواناً . فرفعوا لهم مزارات وغدوا من اولياء الله المقرّبين .

على ان السائحين الصالحين قد اصابوا اجلالاً واكراماً لتقدمهم في مراقي الفضيلة البدوية . اخبروا عن الشيخ عبدالله في معان انهُ عاش بالصلاح والتقوى ينفر عن المثالب والشتائم وكان خطيباً ينذر القوم بالوعد والوعيد وينهاهم عن المنكرات والمحرّمات . فلم يجد في عشرته من يعي كلامه ويحفظه . فلمّا استوفى ايامه اظهر الله

كراماته بشفاء كثيرين على ما زعموا وله سطوة واسعة على الاسقام والامراض

وقد وجدنا بعض المزارات البدوية التي لا يُعرف لها تاريخ بل هي من مخترعات المخيلة الكثيرة الاوهام. فهناك مزارات مضحكة لم تنشأ الّا لتدلّ على عقل البدوي الديني وميله الى الخوارق المختلقة الغريبة كما ترى من رواياتنا السابقة

بالقرب من قرية ماعين غرباً رأيت دائرة من الحجارة يعرفها الاعراب ويرهبونها ويدعونها «مزار ابي رغيف». واصله ان فلّاحاً كان يحرث ارضه فوضع ارغفة خبز على صخرة وجلس يأكل. فعدّها فوجدها ناقصة فقال: باسم الله الرحمان الرحيم اني بالقرب من ولي عظيم. فترك الارغفة ومضى لحراثة ارضه وقد ناله رهب عظيم. فاشتغل ردحاً من الزمن وعدّها فوجدها ناقصة فايقن ان الولي اكلها. وكان هناك وحش يسحبها الى وكره وهو لا يدري فاخبر عرب العوازم الزايدة بذلك فنحروا ذبيحة على تلك الصخرة وبنوا محيطاً بالحجارة دعوه مزار ابي رغيف الى ايامنا هذه. روى لي مزيد الفرّاج قال: «ضاعت لنا أتن في تلك البقعة فمررنا بالقرب من ابي رغيف ونذرنا له عشرة ارغفة ان وجدناها. وعدنا في المساء مكتئبين واذا بالاتن ترعى في محيط ابي رغيف فوفينا النذر وايقنّا بسلطة الولي»

طال الجدال بين الاعراب على سرقة جدي وكان المتهم جالساً بين الحضور ينكر السرقة. فقال له احد الحاضرين: لا ريب انك انت السارق ودلائل الخوف بادية على وجهك فقال: اقسم بالله ورسوله ما مددتُ يدي الى الحرام. فقام احدهم وقال: «لا بالله لا نقبل يمينك اقسم لنا بالهلاهلة». فلما سمع ذكر الهلاهلة امتقع لونه وقال: «لا اقسم ويل للحالف وويل للمحلّف». فسألت احد الجلوس: وما هي الهلاهلة. قال: «هم جماعة من عرب عنزة اتوا بلاد مواب وماعين وسكنوا فيها وكانوا من اولياء الله الصالحين فانقرضت ذريتهم ولم يبق لهم نسل ودُفنوا في ناحية ماعين الشرقية الشمالية

ومن العشائر ما هي بجملتها من الابرار. فقد ورثت الايات عن اجدادها. فمنهم الزعبيّون في السلط والقساطلة عند عرب الزايدة وعشيرة الفقراء وشيخهم هو كنيعان الفقراء. فالزعبيون هم طائفة من اهالي السلط رماهم الدهر بالفقر والنكبات فتركوا بيوتهم ونزلوا في الغابات الشمالية بين الوحوش وصناعتهم الفحم. ولهم

خزعبلات عديدة لا يقيم لها العاقل وزناً . قالوا انهم تآخوا مع الوحوش فلا تنزل بهم ضرراً . وقد تسلّطوا على الحيات والعقارب فيدعونها باسمها ويضعونها في احضانهم فلا تؤذيهم

ومن اغرب ما عندهم من الاعتقادات انه اذا مات احدهم تثقل جثّتهُ فيخطر حاماوها ان يزلوها عن الاكتاف . وكثيراً ما تشتاق الى منزلها فيشعر حاماوها بدافع يدفعهم الى العودة اليها . فيزعمون ان نفس الميت تلبث في مسكنها فلا تخرج منه الّا بعد ثلاثة ايام . فيضربون بالطار وهو نوع من الطبول الصغيرة فترتاح النفس وتسير مع الجسد الى القبر

وكان في السلط حاكم يهزأ بخرافات الزعبيين والفقراء . وكان يترقّب جنازة زعبيّ ليبحث عن صحّة هذا الامر فرأى يوماً بالقرب من دار الحكومة جمعاً غفيراً وسمع اصوات الدفوف والطبول فقيل له : ان الميت يحاول الرجوع الى بيته . وانتشرت الضوضاء وعلت الاصوات والجنازة لم تتقدّم . فشعر الحاكم بمكرهم واستشاط غضباً واخذ سوطاً وجعل يضرب الحاملين . فخفّ الميت للحال ونقلوه باسرع ما يمكن ودفنوهُ . ولم تزل تلك العادة جارية عند الزعبيين والفقراء في البلقاء

ومن مضحكات الزارات مقام ﴿الشيخ خُنَيْزير﴾ . واصله ان صيّاداً قتل خنزيراً برّيًّا وعلّقهُ على شجرة ودفن رأسهُ في اصلها . فمرَّ بدوي فقال : ما هذه الحجارة انهُ لا ريب وليّ من الاولياء . فقال له الصيّاد : هذا الشيخ خُنَيْزير . ونام البدوي في اصل الشجرة فهاجت منه الافكار ولم يستطع ان يوضح ما حلّ به من الاحلام المزعجة . ولمّا انبثق الصبح نحر ذبيحة على القبر الجديد . واصبح هذا المزار مكرّماً بالقرب من عمّان

ومن الخوارق التي يذكرها الاعراب مدحاً لهذا المزار انَّ اعرابيًّا وضع جرَّة سمن على قبر الشيخ . والاولياء في شرقي الاردن تحفظ الودائع والامانات . فاجتاز به اعراب فقالوا : ما اكرمَ الشيخ خُنَيْزير . اننا نتضوَّر جوعاً فمدَّ احدهم يدهُ الى الجرَّة فخرجت حيَّة عظيمة تنفث السمّ القاتل . فايقن الجميع بواسع سلطة الولي

وفي غربي الكرك مزار شهير يدعى ﴿النبي نوح﴾ . يقول الاعراب فيه : عاش نوح كالاعراب تحت المضارب ينحر الجزر للضيوف ويكرم مثواهم . فعظم امره عند

قومه وكثرت ماشيته . ولم يصبر نبيّ على اذىً مثل مـا صبر نوح على قومه وكانت ابنته تخبز في التنور فاوحى اليها ملاك الله قائلاً : اذا رأيت الميـاه قد غلت فادخلوا السفينة فاخبرت اباها بما سمعت . وكان اول من دخل السفينة الدرّة وآخر الحيوانات الحمار . واقترف نوح اثماً عظيماً بكى عليه دهراً طويلاً فاتاه ملاك وقال له : لا تَنُحْ يا نوح . فسمي نوحاً وكان اسمه عبد الرحمـان ومات ودُفن غربي الكرك . فقد زرته فوجدته غنياً بالتحف والهدايا مزيناً بانواع الانسجة مضيئاً بمصابيح الزيت والسمن

واما الخضر الاخضر فهو مكرم في بادية البلقاء ومواب . فهو على زعم العرب اول من امتطى جواداً وحمل رمحاً وانتضى سيفاً وعلّمهم الخوض في ساحات الوغى . وهو شفيع للاعراب يذكرونه في سائر احوالهم . دخل بدوي الى كنيسة مادبا وفيها صورة القديس جاورجوس على جواده الابيض فقال : يا خضر الاخضر يا ليتني ابيع مالي وحلالي وابتاع حصاناً كهذا

ويدّعي الاعراب انه لُقّبَ بالخضر لانه حيثما جلس اخضرّ ما حوله . ويقولون انه بلغ نهر الحيـاة في الجنة فشرب منه وهو لا يعلم وهو حيّ الى يوم يُنفخ في الصّور وتُنشر الاموات من القبور . وله إكرام في شرقي الاردن لا يكاد ينالـه غيره من الاولياء . ولهم في ضواحي الكرك عدة مزارات نذكر اشهرها : مزار السعيدات وعبد السيد والبديوي والسهيلي والشيخ يعقوب . وفي كفر ربّة الشيخ صلاح

٤ الوليات عند العرب

واما النساء الصالحات فقد نلن اكراماً كالاولياء . فمنهنّ بناتُ العين في معان . على انه بالقرب من جبل نبا (Nébo) نجد قبر الرفاعية . وهي وليّة من عشيرة البلبي توفاها الله عند عرب اليزايدة وأبدت صلاحها بعد موتها . وفي معان نرى ام جديعة ومزارها قائم بين اشجار ظليلة ومياه مترقرقة . وما هو الّا صخرة مستديرة يبلغ ارتفاعها مترين . وزعموا ان امرأة كانت هاجعة الى جانب الصخرة فرأت حيّةً هائلة عليها شعَر ذهبي قد خرجت من الماء وقالت لها : انا وليّـة هذا المقام أشفي السقيم العليل . وتواردت النساء الى ام جديعة . وتوقد العاقر اياماً على تلك الصخرة وتحتكّ بها وتبكي بدموع سخينة . وكثيراً ما تطوف حولهـا دفعات متوالية وتقدّم لها من

جدول رسوم الحروف متّصلةً ومُنفَصِلةً (58)

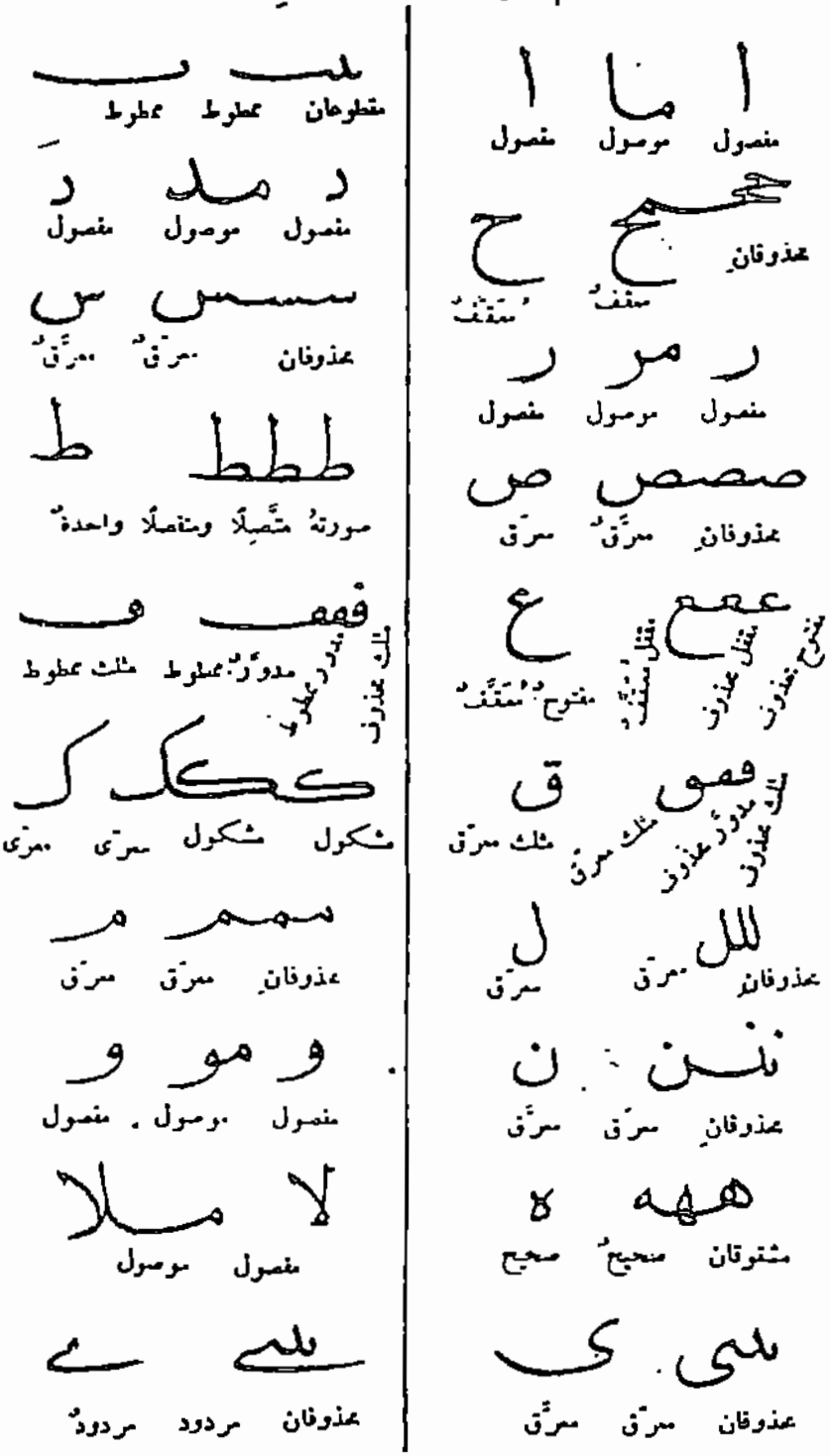

(65) جدول الخط الذي يسمى الخفيف

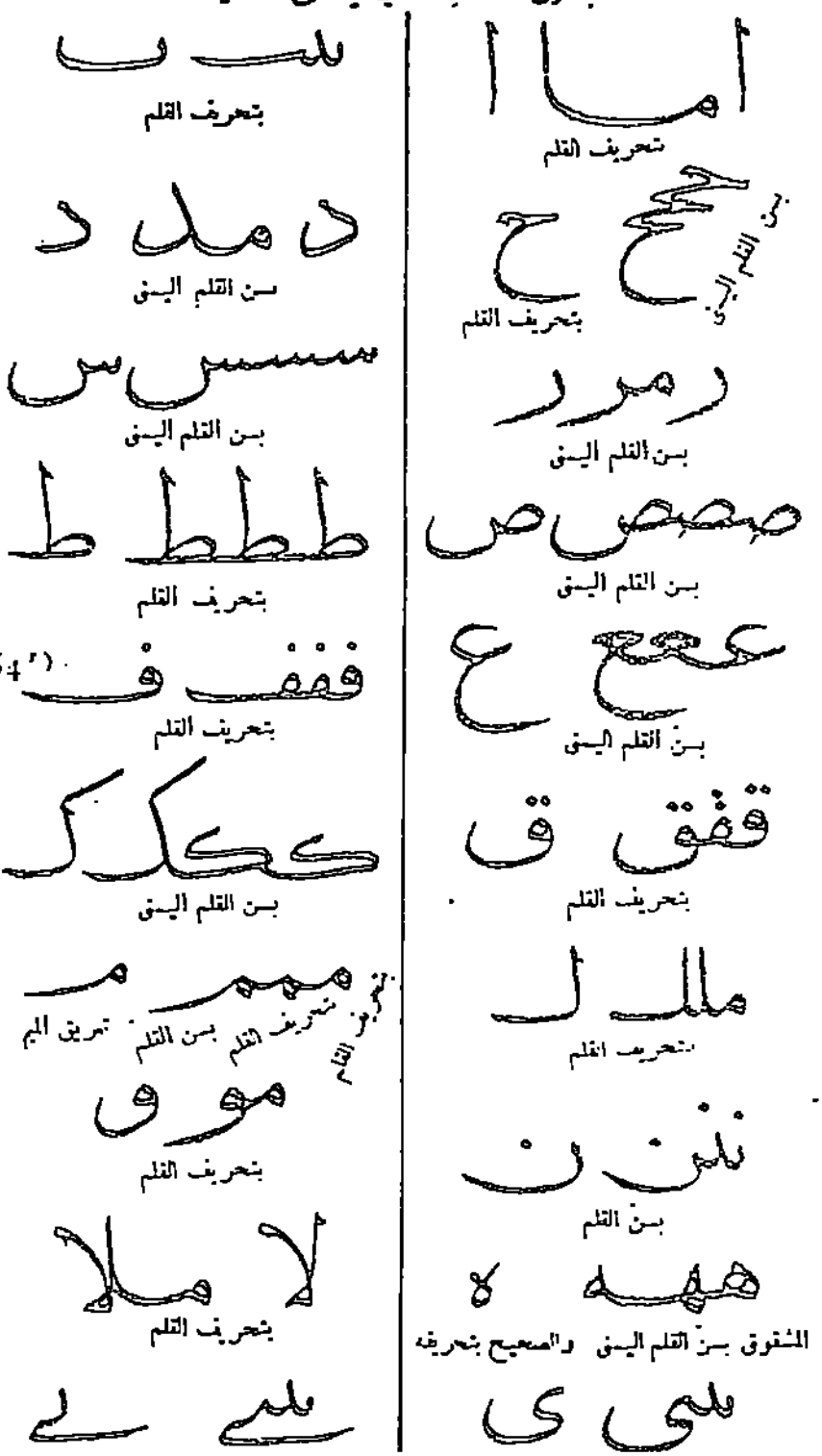

(٦٤) جَدْوَلُ الخطِّ الذي يُسَمَّى الإمساك .

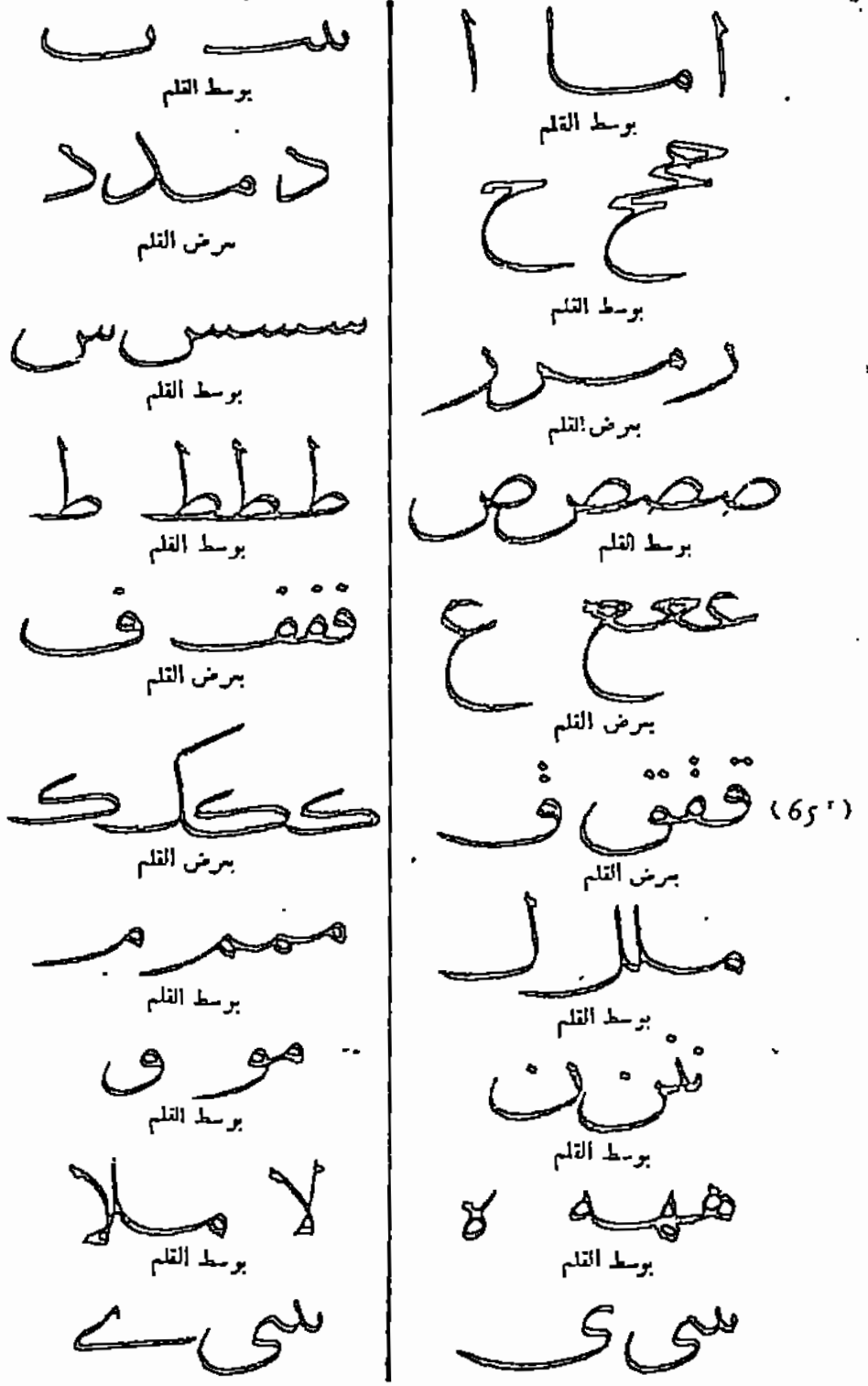

(٦٥)

النذور السمن والكحل والحنا . . ومنهن من يقصصن شعرهن ويعلقنه ذكرا لنعمة نلنها

ولقد جعلوا وليّة لتعزيـة الخزاني في الجنوب الغربي من رميلة الكرك تدعى «علياء» وهو مزار نسائي صرف ومن تاريخه البدوي ان شاباً انخرط في سلك الجندية على عهد ابراهيم باشا ونشبت معركة هائلة بين المصريين وبني صخر فسقط الشاب قتيلاً . فعلمت اخته علياء بمصابه فلبثت على قبره تندبه بابـدع المراثي الى ان فاضت روحها على ضريحه شهيدة الحب الاخوي فدفنت بالقرب منه . وهي تعزي المحزونين وتفرج عن كربتهم

ويزعم الاعراب ان ارواح الاولياء تسكن في القبور حيث يرقد جثمانها . وهي كالبشر في جميع احتياجاتهم من اكل وشرب . فيدّعون ان الرياح والثلوج تؤثر بهم والجوع يفنيهم الى غير ذلـك . والشرارات وهم ابعد الناس عن ربوع العمران لا يدرون قط ما هي حياة الصالحين والاولياء بعد وفاتهم . واليكم الرواية الآتية تدلُّ على اعتقادهم بالاولياء . في منحدر وادي الموجب محيطٌ من الحجارة يُدعى مزار سليم وهو جدّ الشرارات . فكان هناك في اعلى الجبل راعٍ شراري يسرح بنياقه وابله فعثر بعيرٌ له فتدحرج بشدة وسرعة عظيمتين فصـاح الراعي مستنجداً بجده الولي وقائلاً : « يا سليم جدي تلقّاه . يا سليم جدي تلقّاه » والبعير يدور كدولاب سريع . فغيّر صلاتهُ وخشي على جده وقال : « جدي يا سليم تجنّبْ عن وجهه ليدهكك » اي لئلا يدوسك فيحطّمك

٥ ما هي قوة الاولياء ؟ ومن اين لهم بها لو تراها ؟

في شهر ايار سنة ١٩١٥ كنت جالساً في قمة جبل ماعين على العشب الاخضر وكانت الازهار المتنوعة والاقاحين المتلونة منبسطـة على الارض حولي . والشمس مرسلة اشعتها عليها فتُحيلها الى حجارة كريمة . وبينما اتأمل في الطبيعة وما كسَتها يد المولى من الجمال اذ وافى جرجس الحدادين وجلس الى جانبي . فوقع نظرنا على مزار الهلاهلة فسألته : « من ابن سلطة الاولياء وكيف اعتقاد العرب في ذلك » . وهو رجل شيخ خبير بزاعم الاعراب عارف بعواطفهم الدينية فقـال : « ان المولى عزّ وجلّ سلّط الاولياء على البشر للخير او للشر . فمنهم من يسبغ آلاءه بوفرة على بني الانسان

ومنهم من يُنزل بهم المصائب والنكبات » . ثم اتسع مجلسنا وامتدّت حلقتنا اذ رأينا الاعراب تحيّي الحاضرين وتجلس . فدار الحديث على الاولياء فقام احدهم وقال : « سلطة الولي من الله جلّ جلاله . فان لم يمنحه القوة على صنع العجائب بعد موته يصبح قبره كاحد القبور المجاورة . والمولى حرٌّ في عطائه يمنحه لمن يشاء ويرفضه لمن يشاء . وكم من اثيم عاش بالاوزار وغدا بعد موته مقرّباً من الرحمان انه توّاب رحيم . واليكم وصف ذلك بحكاية بدوية : « مات اثنان من قاطعي الطرق بوقت واحد وكان الاوّل يقول في نفسه قبل موته : قد اقترفتُ من الجرائم ما لا يُحصى فاذا وقفتُ في يوم الحساب يزُجني الله الى الهاوية الى عذاب اليم ولكن استشفعُ بموسى وعيسى ونبي المؤمنين انه غفور رحيم . وكان الثاني يقول : مددت يدي الى الحرام ولكن لإكرام الضيوف والله يحبُّ المحسنين وباب المولى مفتوح للاجاويد . فغفر لهما المولى وجعل الثاني من الاولياء الصالحين رحمة منه وعطفاً » .

وكان قوم من الحاضرين ينكرون سلطة الاولياء وهم نفر قليل ممّن دبَّ في نفوسهم روح الكفر والزندقة . فكانوا يؤكدون ان الوهم يستولي على عقول المستغيثين فيعظم ويزداد في المخيلة فيؤثر في مزاجهم من خير او شر . وذكروا ان بدوية وفدت الى قبر الهلالية والوهم متجسّم في صدرها انها تنال الشفاء فاصابت البر قبل وصولها الى المزار على انه لم يكن فيها الّا مرض عصبي . ورووا ان المدعوّة فضّة الموازرة من عرب العوازم اشتدّت عليها الحمى فجرّت نفسها الى محيط ابي رغيف واكلت من ترابه فبرئت من مرضها . وختموا جلستهم على هذا المنوال

ومن مزاعم الاعراب انّ الاولياء ارباب المزارات هم ظلّام في سلطانهم يستبدُّون به كيفما شاءوا دون تروٍ وافتكار . فقبل ان يستعدّ القائد للغزو تدفعه نفسه الى ان ينذر نذرًا لاحد الاولياء الظالمين ان عاد كاسباً غانماً . فقد رايتُ ثلاثين فارساً من عرب المجالي قاصدين غزّة فنذروا جزورًا لجعفر الطيّار ان عادوا منصورين غازين

الغازون على ظهور جيادهم متأهبون للهجوم واذا بهم في مطلع الفجر امام اغنام ملتئمة وابل مجتمعة فيستنجدون شفيعهم ووليّهم ثم ينقضّون على الغنيمة فيسوقونها امامهم . واذا لحقهم اعداؤهم تعود الفرسان الى الوراء ويصطدم الفريقان ويشتعل

وطيس الحرب بينهما. فهناك بين اصوات الرصاص وهدير البارود يرفع العتيد صوته ويستغيث بالاولياء. وبين كر وادبار وعجاج وغبار تسمع: «يا كريم. ياستار. ياللخليل. يا للخضر» وكل يدعو ولي مصره وشفيع قطره

وفي الامراض لا يمرُّ ذكر الاولياء في خلدهم الّا بعد العلاجات البدوية والاعشاب الطبية فينذرون النذور ويقدمونها بعد الشفاء. فقد عهدتُ بدوية تُدعى كوكباً حاملة ابنها الصغير على ذراعيها بقلب كسير ودمع غزير قد نحرت نعجة في مقام النبي هوشع وفاء لنذرها ولمستْ ضريحهُ وقصَّت شعرها وقدمته اقراراً بفضله

وسلطة الاولياء تبدو في الامراض العمومية التي تفتك فتكاً ذريعاً بالانسان والحيوان. فاذا حل الجدري في مضرب من مضارب الاعراب هرب المجاورون والاهارن انفسهم وتركوا المريض وحده يئنُّ بالاوجاع والآلام. وامراض البادية هي الطاعون والهواء الاصفر والحميات بانواعها. فمنها ما يحملها اليهم الحجاج فتنتشر بسرعة غريبة. ومنها ما يحدث باجتماعهم حول المريض وملامستهم له. فينذرون النذور وينحرون النعاج على قبور الاولياء.

علينا الان ان نسطر اضرار الاولياء بالبشر بعد ان ذكرنا إحسانهم وإنعامهم. المرأة العاقر لا يبتسم لها ثغر ولا يفرح لها قلب لان الاولياء الظالمين قد ربطوا رحمها عن الولادة. فكل مصيبة من مصائب البادية تُعزى اما الى الارواح واما الى الاولياء. فلا يهدأ للبدوي بال الّا بالتقادم ووفاء النذور

ومن اسباب غيظ الاولياء المعروفة عند الاعراب السرقة من مقامه. واليكم الاسهاب في ذلك. اذا مرَّ المسافر في القفر يأخذهُ العجب اذ يرى بالقرب من مزار او رجم امتعةً ملقاة على الارض ولا حارس يحرسها كجوالق حنطة ومحراث واثاث وغير ذلك. فلا يتجرأ احد ان يمدّ اليها يداً اثيمة لانها وديعة لصاحب المزار. والولي حارس امين لكل وديعة. فهناك على رؤوس الجبال وفي سفح الاعلام وبطن الوديان وفي السهول الشاسعة تعاين الودائع ولا يمرّ في خيال البدوي ان يسرقها ولو كان في فقر مدقع

وربما تساقطت اسوار المقام وتداعت ابنيته فعلى المؤمنين ان يرفعوه ولو تكبدوا خسائر فادحة فان ثوابهم عظيم في الدارين. وقد يحدث ان بعض الجهال الاغبياء

يستخدمون حجارة المزار لابنيتهم فيحل بهم من البلاء ما لا يوصف . روى لي قيم النبي هوشع ان سالم بن بديوي من السلط ابتاع كرماً وسرق من حجارة النبي هوشع ليبني له كوخاً فلما تمّ البناء سقط بجملته

على الطريق الزوماني بين قرية لبّ وماعين مزار شهير يدعى حُرَيْثين وهو مكرم عند عرب الحمايدة . فاجتاز به خليل الصنّاع من قرية مادبا فرأى اخشاباً تصلح لبناء بيته فحمل تلك الاعواد على دابته وقال : غنيمة باردة ومكسب من الله . فلما بنى بيتهُ وذبح الذبيحة المعهودة ذبيحة البيت هبط برمّته على الفعلة فصرخ الحاضرون : من الولي حريثين امن الولي حريثين !

غير ان صاحب المزار يبدي سلطته حينما يدعوه احد عبيده الصالحين . لينتقم من خصم اقوى منه بأساً واشدّ بطشاً . كنا في مسيل الزرقاء واذا ببدوي يروي لصاحبه ان عدوّه قد مات شرّ ميتة قال : وكيف ذلك . قال : استعنتُ عليه بولي الله عبدالله فاهلكه من حيث لا يدري . واني لسعى لاسرق شاةً لاقدّمها نذر شكر ووفاء .

ومما يذكره العرب ان الولي رحيم غفور . حدّثني الشيخ عبد المهدي قال : كنا في مضرب الشوابكة وكان البرد قارساً والسماء حالكة . فطلبنا حطباً فلم نجد الّا على مزار هناك فاستأذنّا من صاحب المقام وحملنا حزمةً واوقدناها فلم يبتلنا اذى لان الولي عارف بضعف البشر

هل يا ترى سلطة الولي محدودة في قبره ومزاره او تمتد الى الاماكن التي يدعونه فيها ؟ قد اجمع الاعراب ان الولي يكون اشد رحمة واوسع تأثيراً وشفقة في مزاره فانه يظهر بمثل القوة والسلطة . ولذلك نشأت عندهم الزيارات المقدسة فيحجّون الى ضريحه ومزاره كزيارة النبي موسى في غربي الاردن والنبي هوشع في شرقيه . بيد ان المولى انعم عليهم بان ينتقلوا الى حيث يدعوهم المؤمنون . فالنبي موسى يجول الاقطار ويقطع الربوع والامصار . وخليلُ الله ومقرُّهُ في حبرون ينتقل باسرع من لمح البصر الى البلقاء وبلاد مواب غير ان الخضر الاخضر يتجول بقدرة الله في كل مكان . على ان الاولياء الصغار لا تمتدّ سلطتهم الّا في مزاراتهم

ان غاية الزيارات لمقام الاولياء هي تقديم الذبائح والتقادم . فالذبيحة هي نعجة او شاة يطافُ بها حول المزار وتُنحر على اللحد او الرجم . فمنها ما هو سنوي ذكرًا لنعمة قد نالوها في حياتهم ومنها ما هو شهري . فقد قرّب بنو صخر على قبر جدّهم اربعين شاة .

والفقراء انفسهم يهرقون على القبر حلباً او سمناً او زيتاً . وسنبينهُ في مقالتنا الآتية

والاعراب في سائر احوالهم يخشون الأقسام بالمزارات كما ابنّاه ولكن ربما اقسموا بما لا تعود اليهم تبعتها ولا يلحقهم اذاها . ودونكم النادرة الآتية : اختلف عرب العوازم وعرب الشوابكة على ارض فحكم القاضي البدوي ان يقسم شيخ العوازم على ابي رغيف . فنهض الشيخ باكراً قبل طلوع الفجر وامر عازميًا ان يحرث الارض قليلاً . واذا بغراب ينعب في السماء فوجد حلاً لامره فالتأم الفريقان على مزار ابي رغيف ليقسموا القسم . فوقف الشيخ منتصباً في محيط الحجارة واستند على سيف وقال : « وحياة العود والرب المعبود وحياة ابي رغيف انه من حين نعق غرابها العازمي كرّابها وانا واضعها بالعيون السود والربع المتعود » . فصرخ القوم : الارض للعوازم . ولم يُصَب باذى لانه اقسم صادقاً

ومن قبيل ذلك ما حدث في مدينة الكرك منذ مئة سنة ونيف كانت وقعت تهمة على سعاد ابنة الشيخ مجلي . فبحث الشيخ بُديوي عن وسيلة لرفع العار عنها وتبرئتها امام ذويها وعشيرتها . كانت سعاد في البادية ترعى غنم ابيها فانهمكت بالمنكر فهاج اهلها وراموا ذبحها كما هي سنّة البادية . فكانت تقسم بالاقسام العظيمة انها بريئة من اثمها فلم يسمعوا لها قولاً . فلجأت الى شيخ جليل القدر مشهور بحسن السيرة . فاستنجدته ان يخلصها من اقاربها . فأدخلها الى محرمه وامرها ان تتعرى وتزحف على الارض سبع مرات . فلما فعلت وقف الشيخ باهلها وقال : يا قوم انها بريئة مما تعزون اليها فقالوا : اقسم عنها ونحن نبرئها . قال : قولوا : عليها الله ومحمد رسول الله . فقالوا : عليها الله ومحمد رسول الله . فنهض الشيخ ورفع يده الى السماء واقسم انها من حين حَبَت (١ الى حين دَبَّتْ (٢ وشبَّت هي عفيفة طاهرة لم تفعل الفاحش . فعفوا عنها

وبعد سنين طويلة ادركوا نزاهتها وما اتخذه الشيخ بديوي من الوسائل لنجاتها فرفعوا له مزارًا يعرف اليوم بالكرك بالشيخ بديوي

هذا ما اتينا به عن الاولياء تذكرة للخواطر به يقف المطالع على عواطف البدوي الدينية . فيدرك كيف تتكون الديانة عند العرب خصوصاً والساميين عموماً . والله هو وليُّنا ونعم الوكيل

١) حبا الطفل زحف ٢) دبَّ مشى على يديه ورجليه